

قتيبة بن مسلم الباهلي
فاتح بلاد ما وراء النهر

محمد محمود القاضي

دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١ - ٣٩٠٠٥٧٢ ص ب ١٦٣٦

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ففتح به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صمًا .

وبعـــد،

فإن الجهاد فى سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، وما تركه قوم إلا ذلـوا، ومنذ أن أمر الله المسلمين بقتال المشـركين فى قوله تـعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**﴾ [التوبة: ٣٦]، انطلقت كتائب الجهاد فى سبيل الله تفتح البلاد شرقاً وغربًا ابتغاء رضا الله ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٧٤].

وكانت كتائب الجهاد تدرك هدفها جيدًا، فقد كانت رسالتها فى كل لقاء لها مع أعداء الله واضحة، وهى: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وكان يقود هذه الكتائب قادة عظام صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فصدقهم الله، وفتح على أيديهم، وأيدهم على أعدائهم فى معارك فاصلة.

وسوف نقدم فى هذه السلسلة نماذج فريدة لقادة الفتح الإسلامى الذين ضربوا أروع الأمثلة فى فنون القيادة والحرب، وكانت المعارك الحربية التى قادوها دليلاً على عبقريتهم وعظمتهم، فيجدر بكل مسلم أن يدرس سيرة هؤلاء القادة؛ ليقتدى بهم فى حياته، والله نسأل أن يرزق أمتنا بأمثال هؤلاء القادة الأفذاذ، فيفتح الله على أيديهم، ويعيدوا للإسلام عزه ومجده.

المؤلف

فرسان الإسلام

لقد أعطى الإسلام الإنسان الصورة الصحيحة عن الحياة، وعرفه أنه مخلوق مكرم مستخلف فى هذه الأرض، وأنه مسئول أمام الله عن أفعاله، فإن أحسن نال أفضل الجزاء، وإن أساء عوقب على قدر الإساءة.

ومن هذا المنطلق فإن كل فرد مسلم فى المجتمع كان يؤدى دوره كاملا نتيجة وعيه الصحيح، وفهمه لإسلامه، ومعرفة الموقع الذى هو فيه، فيصبح بذلك عضوًا صالحًا فى المجتمع، ويؤلف لبنة من لبنات البناء المتماسك بعضه من بعض.

ومن هذه النماذج الصالحة تكون المجتمع الصالح، وبسبب ذلك وبسبب الوعى الروحى كان الانطلاق للجهاد

فطرة فى هذه النفوس للحصول على إحدى الحسنيين؛ النصر أو الشهادة، ومن ثم تحققت الانتصارات العظيمة للمسلمين، وفتح الله على أيديهم البلاد.

وانطلقت دعوة الإسلام فى كل مكان، فالأرض كلها ساحتها وميدانها، وانطلقت كتائب الجهاد فى كل الاتجاهات لتحقق عالمية الإسلام.

وبعد أن انتهت حروب الردة، كان لابد من مواصلة الجهاد، فبدأت أنظار المسلمين تتجه ناحية حدود الدولة الإسلامية فالفرس يقفون فى وجه الدعوة الإسلامية، ويحاولون دعم أعدائها، ومد المرتدين عليها، والروم يحاربون الدعوة وينصرون خصومها، ويحرضون القبائل ضدها.

ومن ثم كان لابد من قتال الفرس والروم، والاستعانة بالله عليهما، وبالإيمان القوى بأن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ممن استقام على منهجه.

وانطلقت جيوش المسلمين لتقاتل الفرس والروم، وكان المثنى بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ أول من فتح باب الجهاد مع الفرس بعد أن استأذن من الخليفة أبى بكر الصديق -رضى الله عنه-، فصار المثنى يناوش الفرس، وينتصر عليهم وقعة بعد وقعة.

وتوالى فرسان الإسلام الذين قادوا المعارك ضد الفرس بعد ذلك، كخالد بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وعياض ابن غنم، وأبو عبيد بن مسعود الثقفى، وسعد بن أبى وقاص، وهاشم بن عتبة، وعبد الله بن المعتم، وضرار بن الخطاب، والنعمان بن مقرن، وأبو موسى الأشعرى، وحذيفة بن اليمان، وسراقة بن عمرو، والأحنف بن قيس ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ .

فلقد كان هؤلاء الأبطال هم الشهب التى أضاءت سماء المشرق، وانفتحت أمام عزيمتهم أبواب الدنيا، وهؤلاء جميعًا كانوا سببًا في فتوح بلاد فارس، حيث أعز الله بهم الإسلام، وفتح على أيديهم هذه البلاد بعد معارك

طاحنة مع الفرس، مثل: النمارق، والبـويب، والقادسية، ونهاوند، وفـتح المسلمون مـدينة المدائن عاصمـة الفرس، وبذلك انتـهت دولة فـارس إلى الأبد، وتحـقـقت بشـارة الرسول ﷺ.



انطلاقة جديدة

عندما فتح المسلمون نهاوند أمـر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ المسلمين المجـاهدين بالانسـياح فى أرض فارس، وأعطيت الأوامر لسبعة أمراء بالتوغل فى أعـماق بلاد فـارس، فـسار نعـيم بن مـقرن إلى همـدان ففتحها، ثم فـتح الرى (موقع طهران الآن)، وأخذ قومس سِلْما، وصالح أهل جرجان وطبـرستان، وفتح بعض بلاد أذربيجان.

وسار سراقة بن عمرو نحو باب الأبواب على سواحل بحر الخزر الغربية.

وسار الأحنف بـن قيس على رأس جيـش حتى دخل خراسـان من الطبـسين، وهى تُعدّ باب خـراسان، ففـتح

هراة، ومرو الشاهجان، ومرو الروذ، ثم دخل بلخ مع أهل الكوفة، وأصبح الأحنف سيد خراسان، وكتب الأحنف إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بفتح خراسان، فكتب عمر إلى الأحنف قائلا:

أما بعد، فلا تجوزن النهر، واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأى شىء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذى دخلتم به يدم لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتنفضوا.

واتجه عثمان بن أبى العاص بجيشه إلى اصطخر، واجتاز مياه الخليج العربى من البحرين ففتح جزيرة بركاوان، ونزل أرض فارس ففتح جور واصطخر وشيراز.

واتجه سارية بن زنيم الكنانى نحو حشد كبير للفرس، فحاصرهم فتكاثر الأعداء عليه، فلجأ سارية إلى سفح جبل وواجه الفرس من ناحية واحدة، فنصره الله عليهم.

وسار عاصم بن عمرو التميمى بجيشه إلى إقليم سجستان، ففتح المنطقة، ودخل عاصمتها زرنج.

وسار سهيل بن عدى الخزرجى بجيش إلى كرمان ففتحها، وانطلق الحكم بن عمير بجيش إلى مكران ففتحها.

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ غزا الوليد بن عقبة أذربيجان وأرمينيا، وكان أهلهما قد منعوا ما صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر بن الخطاب، فاضطر سكان المنطقة إلى المصالحة من جديد.

وسار أمير خراسان عمير بن عثمان بن سعد غازيا حتى وصل فرغانة، كما سار عبد الله بن عمير أمير سجستان بجيشه فوصل إلى كابل.

وانطلق أمير كرمان عبيد الله بن معمر بجيشه فوصل إلى نهر السند.

ونقض أهل خراسان عهدهم، فسار إليهم عبد الله بن عامر بجيشه ففتح طوس، وأبيورد ونسا، وبلغ سرخس، وصالح أهل مرو، وأعاد فتح خراسان.

وسـار سلمـان بن ربيـعة للغـزو في منطقـة البـاب، وانتفـضت خراسان من جـديد فبـعث عبد الله بن عـامر الأحنف بن قيس على رأس جيش إلى مـرو الروذ فصالح أهلها، وانتـصر على أهل الطالقـان وفارياب والجـوزجان وطخارستان، وصالح أهل بلخ.



بلاد ما وراء النهر

وهى المنقطة التى تـقع إلى الشمـال الشـرقى من بلاد المسلمين، وراء نهـر جيحـون الذى يُعدّ الحـد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية.

وتنقسم بلاد ما وراء النهر إلى خمسة أقاليم:

- إقليم الصُّغْد، وأهم مدنه بخارى وسمرقند.
- إقليم خُوارِزْم، ويشمل دلتا نهر جيحون.
- إقليم الصغانيان.
- إقليم فرغانة فى أعلى نهر سيحون.
- إقـيلم الشاش الذى يقع عـلى ضفـة نهر سـيحـون اليمنى، ويعرف اليوم بطشقند.

وبلا ما وراء النهر جزء من تركستان الغربية التى تضم فى الوقت الحاضر جمهورية أوزبكستان وجمهورية تاجيكستان.

والترك هم أول من سكن هذه المنطقة، وسكنها الإيرانيون أيضا، وكانت السيطرة على بلاد ما وراء النهر سجالا بين الترك والفرس، وقد حكمت هذه البلاد من الجانبين قبل الفتح الإسلامى العظيم. وكان أهل المنطقة من السكان الإيرانيين يدينون بالديانة الزرادشتية، وقد اعتنقها أيضًا قسم من الأتراك، هذا بالإضافة إلى البوذية التى كانت منتشرة أيضًا فى هذه البلاد. وقبيل الفتح الإسلامى وبدايته، كان يحكم هذه المنطقة زوجة الملك بندون التى يدعونها بـ «خاتون» أى السيدة المصون، وكان الملك بندون قد توفى، وترك طفلا رضيعا اسمه طغشاد، فتولت أمه خاتون شئون البلاد، وكانت سيدة عاقلة ذات رأى صائب، واستمر حكمها خمسين سنة.

فتح بلاد ما وراء النهر

كان الأحنف بن قـيس ـ رضى الله عنه ـ هو أول من فتح خراسان فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وحـدث أن استنجـد يزدجرد ملك الفـرس بخاقـان ملك الترك، فبادر خاقان إلى مسـاعدته، وعبر بجيشه نهر جيحـون إلى مدينة بلخ التى سيطر عليهـا المسلمون وأعاد هذه المدينة إلى سيطرة يزدجرد بعد أن قاتل حاميتها المحلية من المسلمين.

ويبدو أن خـاقان فعل ذلك لأن له مصلحـة فى إبعاد المسلمين الفاتحين عن مدينة بلخ لأنها مـفتاح السيطرة على بلاد ما وراء النـهر، وستكون الخطوة الـتالية لفـتحـها هو عبـور المسلمين نهر جيـحون، وفتح بلاد مـا وراء النهر، وتهديد بلاد خاقان.

ولم يسكت المسلمون على هزيمة حامية بلخ المحلية أمام جيش خاقان، فبادروا فورًا بالزحف على بلخ بقيادة الأحنف بن قيس، فقاتل المسلمون جيش خاقان، وانتصروا عليه بسهولة ويسر، وأجبروه على الانسحاب من بلخ، فعاد خاقان إلى بلاده فيما وراء النهر ومعه يزدجرد.

واستعاد الأحنف فتح مدينة بلخ وسائر خراسان، وكتب إلى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- بالفتح، ولما تسلم عمر كتاب الأحنف بالفتح جمع المسلمين، وبشرهم بهذا الفتح، وقرأ عليهم كتاب الأحنف، ثم خطب قائلا: ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية، وفرق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شبرًا يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون، فقوموا فى أمره على رجل يعرف لكم بعهده ويؤتكم وعده، ولا تتبدلوا ولا تتغيروا فيستبدل الله بكم غيركم، فإنى لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم.

ولما قتل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ نقض أهل خراسان عهدهم، فاستعاد عبد الله بن عامر فتح خراسان بمعاونة الأحنف بن قيس سنة ٣١ هـ على عهد عثمان بن عفان -رضى الله عنه-.

وفى أيام الفتنة الكبرى التى حدثت بعد استشهاد عثمان بن عفان انتفضت بعض مناطق خراسان، ومدينة بلخ، وفى سنة ٥١ هـ أصبح الربيع بن زياد واليا على خراسان، فسار بجيشه إلى بلخ واستطاع أن يفتحها صلحًا.

وهكذا ظلت مدينة بلخ عرضة لمحاولات الترك ضمها إليهم، وأخذها من أيدى المسلمين كلما فتحوها لأهمية مكانها بالنسبة لبلادهم، لذلك قرر المسلمون فتح بلاد ما وراء النهر، وأصبحت بلخ هى القاعدة الأساسية للمسلمين فى فتح هذه المنطقة.

وفى سنة ٤٨ هـ فتح الحكم بن عمرو الغفارى

الصغانيان، وهو إقليم من أقاليم بلاد ما وراء النهر.

وفى سنة ٥٤ هـ تمكن عبيد الله بن زياد من عبور نهر جيحون، وسار إلى جبال بخارى فى أربعة وعشرين ألف مقاتل، وفتح راميثن، ونسف، وبيكند، ثم عقد المسلمون صلحًا مع خاتون ملكة بخارى على جزية كبيرة فى مقابل الرجوع عن غزو بخارى.

وفي سنة ٥٦ هـ عبر سعيد بن عثمان والى خراسان نهر جيحون، فتجمع لقتاله جيش كبير من أهل الصغد وكش ونسف، ونقضت خاتون عهدها مع المسلمين، ولكن عددًا كبيرًا من جيشها انصرف قبل بدء القتال، فأثر ذلك على باقى الجيش، ولم تجد خاتون مفرًا من إعادة الصلح مع المسلمين، ودخل المسلمون بخارى فاتحين.

ثم غزا سعيد بن عثمان سمرقند وحاصرها، فصالحه أهلها على دفع جزية كبيرة، وأن يعطوه رهنا من أبناء عظمائهم، ثم انصرف سعيد إلى ترمذ وفتحها صلحًا.

وفى سنة ٦١ هـ غزا سلم بن زياد والى خراسان خوارزم فصالحه أهلها، وفى ذلك الوقت نقضت خاتون عهدها، فسار سلم إلى سمرقند، فصالحه أهلها.

واجتمع جيش كبير لخاتون ومن استعانت بهم من ملوك الترك لقتال المسلمين، فقاتلهم سلم وانتصر عليهم، وهزمهم هزيمة منكرة، فتركوا ساحة القتال تاركين غنائم كثيرة، وصالحت خاتون المسلمين، واستعاد المسلمون بخارى.

ثم توقفت الفتوح فى بلاد ما وراء النهر فترة لانشغال المسلمين بالفتن الداخلية، وفى هذه الفترة حدثت انقسامات كثيرة بين المسلمين فى خراسان نفسها، وانتهز الأعداء هذه الفرصة واستطاعوا إعادة بعض المدن إليهم.

وفى سنة ٧٤ هـ عين الخليفة عبد الملك بن مروان أمية ابن عبد الله واليا على خراسان، فبذل أمية قصارى جهده فى إصلاح ما فسد فى خراسان.

وفى سنة ٧٨ هـ ضُمت خراسـان إلى أعمال الحـجاج ابن يوسف والى العـراق، فبـعث الحجـاج المهلب بن أبى صفرة إلى خراسان، فغـزا المهلب غزوات كثيرة، واستطاع أن يعيد الأمن والاستقرار إلى المنطقة.

وتولى يزيد بن المهلب إمرة خراسـان من قبل الحجاج بعد وفاة أبيه المهلب، فغزا يزيد خوارزم سنة ٨٢ هـ.

وفى سنة ٨٥ هـ ولى الحجاج المفضل بن المهلب على خراسان ففتح المفضل باذغيس وشومان وآخرون.

واستطاع المفضل أن يقضى على موسى بن عبد الله بن خازم الذى سـيطر على جزء كـبير من بلاد مـا وراء النهر وانفصل عن الدولة لمـدة خمس عشـرة سنة، وهكذا أعاد المفضل المنقطة كلها إلى رحاب الدولة الأموية.



قتيبة بن مسلم الباهلى

عزل الحجاج بن يوسف الثقفى عن خراسان المفضل ابن المهلب سنة ٨٦ هـ فى خلافة الوليد بن عبد الملك، وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى.

وقد ولد قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلى فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - سنة ٤٩ هـ، وكان أبوه عظيم القدر عند يزيد بن معاوية، ونشأ قتيبة فى الدولة المروانية، وولاه عبد الملك بن مروان الرى.

وكان قتيبة من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجعان وذوى الحروب والفتوحات السعيدة، والآراء الحميدة، وقد هدى الله على

يديه خلقـا لا يحصـيهم إلا الله، فـأسلموا ودانوا لله عـز وجل، وفتح من البلاد والأقـاليم والمدن شيئًا كثـيرًا، وقد استطاع قتيبة أن ينال ثقـة الحجاج، فكان الحجاج يرى فيه الكفاءة والصلابة والقوة، وهى صفات القادة الأفذاذ.

وعندمـا ضاق الحـجاج ذرعـا بالموقف المتـدهور على الجبهة الشرقية وكثرة الثورات والفتن فى هذه المنطقة، ولى قتيبة بن مسلم إمارة خراسـان ليعيد الأمن والاستقرار إلى هذه المنطقة، ويواصل مسيرة الفتوحات بها.

❋ ❋ ❋

مسيرة الفتح

ولما قدم قتيبة خراسان جمع الناس، وحضهم على الجهاد، قائلاً: أما بعد، فإن الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة، والعدو وقما (ذلا)، ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

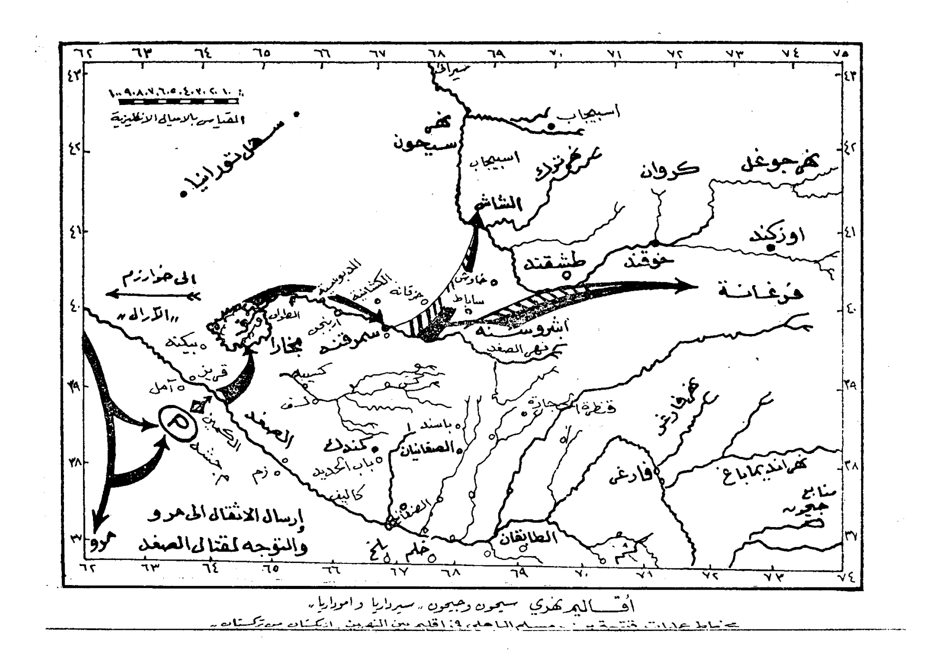
ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ

عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

ثم أخبر عـمن قتل فى سبيله أنه حى مـرزوق فقال: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمـران: ١٦٩] فتنجزوا مـوعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر، وأمضى ألم، وإياى والهوينى.

ثم أتم قتيبة تنظيم جيـشه، وغادر مرو، واتجه إلى نهر جيحون وتوقف فى بلخ ليردها إلى رحاب المسلمين بعد أن انتفض بعض أهلهـا، فحاربهم قتـيبة، فسـارع أهلها إلى الصلح، فصالحهم قتيبة، ورد إليهم السبى.

ثم سار قتيبة إلى الطالقـان بعد أن استقبل دهاقين بلخ وبعض عظمائهم الذين ساروا معه، فلما عبر نهر جيحون تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب، ودعاه إلى



أقـــاليم نهري سيحون وجيحون «سيرداريا وامورداريا»

مخطط عمليات قتيبة بن مسلم الباهلي في اقليم بين النهرين «تركستان»

بلاده وسلمها إليه، لأن ملك شـومان وآخرون كان يسيء جواره.

وسار قـتيبـة إلى آخرون وشمـان وهما طخارسـتان، فجاءه ملكها فـصالحه على فدية، فقبلها قتـيبة ثم انصرف عائدًا إلى مرو، واستخلف قتيبة على الجند أخاه صالح بن مسلم، ففتح صالح كـاشان وأورشت وهى مدينة من مدن فرغانة، وفتح أخسيكث وهى مدينة فرغانة القديمة.

وعندما بلغ الحجـاج ذلك، كتب إلى قتيـبة يلومه فى تخليف الجند قائلاً: إذا غزوت فكن فى مقدم الناس، وإذا قفلت فكن فى أخرياتهم وساقتهم.

وفى سنة ٨٧ هـ علـم قتـيـبـة بوجـود بعض أسـرى المسلمين فى قبضة ملك طـرخان، فكتب إليه طالبا إطلاق الأسرى، وتهدده، فخـاف الملك وأطلق الأسرى، فأرسل إليه قـتيبة يدعـوه إلى الصلح حتى لا يحاربه، فقـدم إليه ملك طرخان، وصالحه.

ثم سار قتيبة إلى بيكند وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر ومر فى طريقة بمرو الروذ وزم ثم عبر نهر جيحون، وعندما علم أهل بيكند باقتراب جيش قتيبة طلبوا المناصرة من الصغد ومن حولهم، فأتوهم فى جمع كثير، وقطعوا على قتيبة محاور الطريق، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول مدة شهرين، وأبطأ خبره على الحجاج، فأشفق على الجند، وأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار.

وكان قتيبة يقاتل عدوه كل يوم، وكان لقتيبة جاسوس من الفرس، فأعطاه أهل بخارى مالا على أن يصرف عنهم قتيبة، فأتى الجاسوس إلى قتيبة، وطلب الاجتماع به على انفراد، فخرج الناس، واستبقى قتيبة ضرار بن حصين ليحضر المقابلة، فقال الجاسوس لقتيبة: هذا عامل يقدم عليك، وقد عزل الحجاج فلو انصرفت إلى مرو.

فأمر قتيبة بقتل الجاسوس حتى لا يظهر الخبر، وطلب من ضرار كتمان الخبر، وإلا حدث له مثل ما حدث

للجاسوس.

وأمر قتيبة أصحابه بالجد فى القتال، فقاتل المسلمون أعداءهم وهزموهم وطاردوهم، وأسروا منهم عددًا كبيرًا.

ودخل بعضهم المدينة واعتصموا بها، فقرر قتيبة هدم سور المدينة، فسأله المحصورون الصلح، فصالحهم قتيبة، وبدأ بالرحيل عنهم، ولكنهم نقضوا الصلح وتحصنوا، فرجع إليهم قتيبة، وحاصرهم وأمر جنوده أن ينقبوا سور المدينة، فطلب أهلها الصلح، فلم يوافق قتيبة، ودخل المدينة، وقتل من كان بها من المقاتلة.

ولما فتح قتيبة بيكند أصاب المسلمون فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى، وصار فى أيدى المسلمين شىء لم يصيبوا مثله بخراسان، ورجع قتيبة إلى مرو، وقوى المسلمون فاشتروا السلاح والخيل وتنافسوا فى حسن الهيئة والعدة، وكان فى الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة، فاستأذن قتيبة الحجاج فى إعطاء ذلك للجند، فأذن له الحجاج.

فلما كانت السنة التالية، جـمع قتيبة الناس، ودعاهم إلى الجهاد قـائلا: إنى أغزيكم قبل أن تحتـاجوا إلى حمل الزاد، وانتقلكم قبل أن تحتـاجوا إلى الإدفاء. فسار من زَمّ إلى بخارى فأتى نومشكت، وهى من بخارى فصالحوه.

وسار قتيبة إلى راميـثن، فصالحه أهلها أيضًا فانصرف عنهم. وفى طريق عودته إلى مرو زحف إليه الترك ومعهم الصغـد وأهل فرغـانة فى مائتى ألف مـقاتل بقـيادة ملك الترك، فهددوا ساقة الجيش بقـيادة عبد الرحمن بن مسلم الباهلـى فأرسل عبـد الرحمن إلى قـتيـبة، فرجع قـتيـبة بالناس، وقاتل الترك وهزمهم.



فتح بخارى

لم تكن الأعمال التى قام بها قتيبة أكثر من غزوات استطلاعية، فجاءته رسالة من الحجاج يحثه فيها على مواصلة الجهاد، وغزو بخارى، وملكها يومئذ وردان خداة الذى اغتصب الملك من طغشاد بن خاتون.

وعبر قتيبة النهر من زم، فلقيه أهل الصغد وأهل كش، ونسف فى طريق المغازة وقاتلوه، ولكنه انتصر عليهم.

وسار قتيبة إلى بخارى، فنزل خرقانة السفلى، فلقوه بجمع كبير، فقاتلهم يومين وليلتين، وانتصر عليهم، ثم غزا وردان خداة، ولكنه لم يظفر منه بشىء، فرجع قتيبة إلى مرو، فأرسل الحجاج إلى قتيبة يعتب عليه انصرافه عن

وردان خداة قبل أن يظفر به.

فخرج قتيبة من مرو غازيا سنة ٩٠ هـ، فأرسل وردان خداة إلى الصغد والترك ومن حولهم يستنصر بهم، فأتوه، ولكن قتيبة قد سبق إليه وحاصره.

ووردت الإمدادات إلى ملك بخارى، فخرجت قوة من المسلمين لقتالها، فأرادت قبيلة الأزد أن تنال شرف مجابهة قوات الدعم وحدها، فقالت: اجعلونا على ناحية، وخلوا بيننا وبين قتالهم، فوافق قتيبة، فتقدموا يقاتلونهم قتالا شديدًا، ولكنهم انهزموا حتى دخلوا عسكر قتيبة وجاوزوه، فضرب النساء وجوه الخيل بعد أن خرجن لمجابهة قوات العدو، فتدخل قتيبة، وأمر جيشه بتطويق قوات الترك وإبادتها، فأسرع هؤلاء بالانسحاب إلى منطقة مرتفعة، فقال قتيبة: من يزيلهم عن هذا الموضع؟ فلم يقدم عليهم أحد، فأتى قتيبة بنى تميم، وقال لهم: يوما كأيامكم.

فأخذ وكيع بن حسان التميمى اللواء، وقال: يا بنى

تميم، أتسلمونني اليوم؟ فقالوا: لا، يا أبا مطرف، وكان هريم بن أبي طحمة على خيل بني تميم ووكيع رأسهم، فقال وكيع: يا هريم، قدم خيلك، ودفع إليه الراية، فتقدم هريم إلى نهر بينهم وبين الترك، فوقف، فقال له وكيع: اقحم يا هريم، فعبر هريم النهر بفرسه، وانتهى وكيع إلى النهر، وجعل عليه جسرًا من خشب، وقال لأصحابه: من وطن نفسه على الموت فليعبر وإلا فليثبت مكانه، فما عبر معه إلا ثمانمائة رجل.

واقترب وكيع من العدو، فقال لهريم: إني مطاعنهم، فأشغلهم عنا بالخيل، فطاعنوهم، وقاتلوهم حتى أزاحوهم عن مواضعهم.

ونادى قتيبة: أما ترون العدو منهزمين؟ فأتبعهم الناس. وحمس قتيبة الناس قائلا: من جاء برأس فله مائة.

فاجتهد المسلمون في المعركة، وجاءوا برءوس كثيرة للعدو، وجرح خاقان ملك الترك وابنه في المعركة.

وفـتح الله على المسلمين بخـارى، فكتب بالفـتح إلى الحجاج.

وتقدم ملك السند «طرخون» حتى وصل الضفة المقابلة من نهر جيحـون وعرض على قتيبة الصلح، فواق قـتيبة، ولما رجع طرخـــون إلى بلده رفض أهـل مملكتـــه الصلح وخلعوه عن الملك، ونصبوا ابن أخيه ملكا عليهم، فأرسل هذا الملك الجديد إلى قتـيبة يعلن رفضه لاتفـاقية الصلح، وفى الوقت نفسه انتفض نيزك طرخان أحد ملوك الأعاجم على قتيبة، ونقض عهده معه، وجمع حوله جيشا وأعوانًا لقتال قتيبة، واستجاب له عدد من الملوك الضعفاء، ولكن قتـيبة اسـتطاع أن يتصدى لهـذه الفتنة وقـاتل الملك نيزك وانتصر عليه، وأسر نيزك، فأمر قتيبة بقتله.

وعمل قـتيـبة بعد ذلك على إعـادة تنظيم الإدارة فى طخارستان، ثم رجع إلى مرو، واسـتعمل على بلخ أخاه عـبد الرحـمن، وأرسل إلى الحـجاج بالخـروج وبأخبـار الفتح، فكان الحـجاج يردد دائما: بعثت قـتيبة فـتى غرًا،

فما زدته ذراعًا إلا زادنى باعًا.

وفى هذه السنة سار قتيبة إلى شومان لأن ملكها طرد عامل قتيبة عنده، وأرسل إليه قتيبة رسولين يدعوانه إلى أن يؤدى ما عليه، ولكن أهل شومان قتلوا أحد الرسولين، وبلغ قتيبة قتله، فسار إليهم بنفسه، وأرسل أخاه صالح بن مسلم إلى ملك شومان يأمره بالطاعة، ولكنه رفض، فأتاه قتيبة وقد تحصن ببلده، فوضع عليه المجانيق، ورمى الحصن فهشمه، وفتح قتيبة القلعة وقتل الملك، ثم سار قتيبة إلى كش ونسف ففتحهما صلحًا، وامتنعت عليه الفارياب، فأحرقها.

وسار عبد الرحمن بن مسلم إلى الصغد بأمر قتيبة، فذهب عبد الرحمن إليها وقبض من ملكها ما كان قد صالح قتيبة عليه.

وفى سنة ٩٢ هـ غزا قتيبة سجستان، فطلب ملكها الصلح، فقبل قتيبة الصلح واستعمل عليها أحد رجاله.

وفى السنة التالية صالح قتيبة ملك خوارزم الذى استغاث بقتيبة لينصره على أخيه الذي غلبه على أمره وسلب أموال الرعية، فأقبل قتيبة على خوارزم فجأة، وقبض على أخى الملك الذى نازعه الملك، وسلمه إلى أخيه هو ومن كان يخالفه من أمرائه، فقتلهم الملك ودفع أموالهم إلى قتيبة، وصالح قتيبة ملك خوارزم على فدية كبيرة.



فتح سمرقند

وفى سنة ٩٣ هـ جاء المجشر بن مزاحم السلمى إلى قتيبة وأسر إليه قائلا: إن أردت الصغد (أى غزوها) يومًا من الدهر، فالآن فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام.

فقال قتيبة: أشار بهذا عليك أحد؟ قال: لا. قال: فأعلمته أحدًا؟ قال: لا، فقال قتيبة: والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك. وقد فعل قتيبة ذلك ليظل الأمر سرًا.

وفى الصباح قال قتيبة لأخيه عبد الرحمن: سر فى الفرسان والرماة، وقدم الأثقال إلى مرو، ففعل عبد الرحمن ما أمره به قتيبة، وسار إلى مرو، فلما أمسى كتب

إليه قتيبة: إذا أصبحت فوجه الأثقال إلى مرو، وسر بالفرسان والرماة نحو الصغد، واكتم الأخبار، فإنى بالأثر، ووصل قتيبة إلى الصغد بعد عبد الرحمن بثلاثة أيام أو أربعة، وقدم معه أهل خوازرم وبخارى، فحاصرهم قتيبة شهرًا، وكتب أهل الصغد إلى ملك الشاش وملك فرغانة: إن العرب إن ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به، فانظروا لأنفسكم، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها.

فقرر ملكا الشاش وفرغانة إمداد أهل الصغد بخيرة فرسانهم، ولكن قتيبة علم الخبر، فأرسل أخاه صالح بن مسلم على رأس قوة لمواجهة هذا المدد، ونجح صالح فى أن يتغلب على المدد القادم من الشاش وفرغانة، وعلم الصغد باندحار القوة التى جاءت مددًا لهم، فأثر ذلك فى معنوياتهم أسوأ الأثر، ونصب قتيبة حول سمرقند المجانيق، وأخذ قتيبة يناجى نفسه بقوله: حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان أما والله لئن أصبحت

لأحاولن من أهلك أقصى غاية.

وأصبح قتيبة، وميز أهل البأس، فجمعهم يعرضهم بنفسه، ثم زحف قتيبة بفرسانه، وأمر الناس بالجد فى القتال، وحمل الصغد على المسلمين حملة شديدة، فتصدى لهم المسلمون، وهزموهم حتى ردوهم إلى عسكرهم، فدخلوا مدينة سمرقند وتحصنوا بها، ورمى قتيبة المدينة بالمجانيق، حتى فتح فتحة فسدها الأعداء، فاستمر قتيبة فى رمى سمرقند بالمنجنيق حتى فتح فتحة أخرى فى الحصون، وقاتل المسلمون على هذه الفتحة حتى صاروا على الفتحة التى أحدثوها، ووقف رجل على الثغرة يشتم قتيبة، فأمر قتيبة رجلا من الرماة برميه، فرماه بسهم فلم يخطىء عينه.

وفى اليوم التالى استطاع المسلمون أن يعبروا الثغرة، وحملوا بقوة على أعدائهم، ودخلوا مدينة سمرقند، وطلب أهلها الصلح فصالحهم قتيبة على فدية كبيرة، وأن يعطوه ثلاثين ألف فارس، وأن يخلوا المدينة من المقاتلين،

وأن يبنى فيها مسجدًا، فنفذ أهل سمرقند شروط الصلح، ودخل قتيبة سمرقند، فصلى وخطب ثم تغذى، وأرسل إلى أهل الصغد: من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه فإني لست خارجا منها، ولست آخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه، غير أن الجند يقيمون فيها.

وبعد ذلك جمع قتيبة ما تحتويه بيوت النيران وحلية الأصنام فكانت كالقصر العظيم حين جمعت، فأمر بحرقها، فقال بعض الأعاجم: إن فيها أصناما من حرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدى، ودعا قتيبة بالنار وأخذ مشعلة بيده، وخرج فكبر، ثم أشعلها وأشعل الناس فاضطرمت، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال، وتلا قتيبة: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١].

واستخلف قتيبة على سمرقند عبد الله بن مسلم، وقال له: لا تدعن مشركا يدخل بابا من أبواب سمرقند

إلا مختـوم اليد، وإن جفت الطينة قبل أن يخـرج فاقتله، وإن وجدت معـه حديدة أو سكينا فما سـواه فاقتله، وإن أغلقت البـاب ليلا فوجـدت فيهـا أحدًا منهم فـاقتله، ثم رحل قتيبة إلى مرو.

وفى سنة ٩٤ هـ عبر قتيبـة نهر جيحون، وفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عـشرين ألف مقاتل، فـساروا مـعه، فـوجـههم إلى الـشاش، وتوجـه هو إلى فرغانة، وفى الطريق تجمع له الأعـداد فى خجندة فانتصر عليـهم، وفتح الجنود الـذى ساروا إلى الشـاش الإقليم، وفتحوا المدينة أيضًا.



الانطلاق نحو الصين

وفى سنة ٩٥ هـ بعث الحجاج إلى قتيبة جيشًا من العراق، فغزا بهم، وأتاه خبر موت الحجاج، فغمه ذلك، ورجع إلى مرو، فجاءه كتاب أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وفيه:

قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك فى جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك فأتم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأنى أنظر إلى بلائك والثغر الذى أنت فيه، فكانت هذه الرسالة حافزًا لقتيبة حتى يواصل فتوحه.

وانطلق قتيبة إلى كانغر وهى أدنى مدائن الصين،

وتوغل حتى اقترب من الصين، فكتب إليه ملك الصين:

ابعث إلى رجلا شريفًا يخبرنى عنكم وعن دينكم. فاختار قتيبة اثنى عشر رجلا لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح، وأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز وغير ذلك وخيول حسنة، وكان منهم هبيرة بن المشمرج الكلابى مفوها سليط اللسان، وقال لهم:

إذا دخلتم على ملك الصين، فأعلموه أنى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبى خراجهم.

وانطلق الوفد بقيادة هبيرة، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام، ثم خرجوا فلبسوا ثيابا بيضاء تحتها الغلائل وتطيبوا بالبخور والعطور، ولبسوا النعال الرقيقة، ودخلوا على الملك وعنده عظماء أهل مملكته فلم يكلمهم أحد، فنهضوا، فقال الملك لجلسائه: كيف رأيتم هؤلاء؟ قالوا: رأينا قوما ما هم إلا نساء.

وفى الغد دعاهم فلبسوا الوشى والعمائم، فلما دخلوا على الملك قيل لهم: ارجعوا. وقال الملك لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك.

وفى اليوم الثالث دعاهم، فشدوا سلاحهم ولبسوا خوذ الحرب، والمغافر، وأخذوا السيوف والرماح والقسى، ودخلوا على الملك كأنهم الجبال، فقيل لهم: ارجعوا، وقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ فقالوا: ما رأينا مثل هؤلاء.

فبعث إليهم ملك الصين قائلا: ابعثوا إلى زعيمكم، فجاءه هبيرة، فقال له الملك: قد رأيتم عظم ملكى، وأنه ليس أحد يمنعكم منى وأنتم فى يدى بمنزلة البيضة فى كفى، وإنى سائلكم عن أمر، فإن لم تصدقونى قتلتكم. فقال هبيرة: اسأل. فقال الملك لم صنعتم فى الزى الأول والثانى والثالث؟ قال هبيرة: أما زينا الأول فلباسنا فى أهلنا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثانى فإذا أتينا أمراءنا،

وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا، فإذا هاجنا هيج أو فزع كنا هكذا.

قال الملك: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف، فإنى عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه.

فقال هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون! وكيف يكون حريصًا من خلف الدنيا قادرًا عليها وغزاك، وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه.

قال الملك: فما الذى يرضى صاحبك؟

قال هبيرة: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويُعطَى الجزية.

قال الملك: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث

إليـه بجزية يرضـاها، ثم دعـا ملك الصين بصحـاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحـرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكـهم، ثم أجازهم فـأحسن جـوائزهم، فسـاروا فقـدموا بما بعث به، فقـبل قتيـبة الجزية، وخـتم الغلمان وردهم، ووطىء التراب.

وأثناء ذلك وصل الخبر إلى قتيـبة بموت الخليفة الوليد ابن عبد الملك وتولى سليمان بن عبد الملك مكانه.



نهاية الرحلة

كان الوليد بن عبد الملك قد عزم قبل موته على خلع أخيه سليمان، وأن يجعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد العزيز بن الوليد، وكان الحجاج قد طاوعه على ذلك وكذلك قتيبة بن مسلم، ولكن الوليد مات قبل أن يفعل ذلك، وأصبح سليمان خليفة للمسلمين.

وكان الحجاج قد مات قبل الوليد، فخاف قتيبة شر سليمان، فكتب إلى الخليفة كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه فى أخيه، ويذكر فيه بلاءه وفتوحاته، وأن له السمع والطاعة إن لم يعزله عن خراسان، وذم فى كتابه يزيد بن المهلب، ثم كتب كتابًا ثانيا يذكر ما فعل من الفتوحات ويذم يزيد أيضًا، ويقسم فيه لئن عزله وولى يزيد ليخلعن سليمان

عن الخلافة، وكتب كتابا ثالثًا فيه خلع سليمان بالكلية، وبعث قتيبة بهذه الرسائل مع البريد، وقال له: ادفع إليه الكتاب الأول، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثانى، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثالث.

ووصل البريد إلى سليمان وعنده يزيد، فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الثانى فقرأه ثم رمى به إلى يزيد، فدفع إليه الكتاب الثالث فقرأه، وتغير لونه ثم وضعه بجانبه وأمر بإنزال البريد فى دار الضيافة، ثم دعا البريد فى المساء وأعطاه كتابا فيه ولاية قتيبة على خراسان، وأرسل بريدًا آخر من جهته ليقرره عليها، ولكن قتيبة كان قد خلع الخليفة قبل أن يصل إليه البريد.

وكان قتيبة قد جمع الجند والجيوش وأخبرهم بعزل سليمان، وذكر لهم همته وفتوحه، ودفعه الأموال الجزيلة لهم، فلم يجبه أحد فذمهم قتيبة ولامهم فتفرقوا عنه،

وسعوا في قـتله، واجتمع عليه رجل يسـمى وكيع بن أبي سود في جـموع كثيـرة وقتله ومعه عـدد من إخوته وأبناء إخوته وكان ذلك سنة ٩٦ هـ.

وهكذا زل قتيبة زلة كان فيـها حتفه، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قـد يكفر الله به سيئاته، ويضاعف به حسناته، والله يسامـحه، ويعفو عنه، ويتقـبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء.



رقم الايداع
٩٨/١٣٨٤٨
الترقيم الدولى
٩٧٧ـ ٢٦٥ ـ ٢٢٨ ـ ٥

